كتاب ذم المسكر

للإمام الحافظ أبي بكر عبد الله بن محمد
ابن عبيد بن أبي الدنيا القرشي البغدادي
المتوفى سنة ٢٨١ هـ

قدم له وحققه وعلق عليه
الدكتور نجم عبد الرحمن خلف
أستاذ مساعد بالجامعة الإسلامية
والباحث في مركز خدمة السنة والسيرة النبوية
بالمدينة المنورة

دار الراية
للنشر والتوزيع

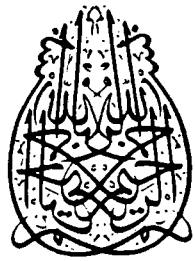

كتاب ذم المسكر

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م

دار الراية
للنشر والتوزيع

الرياض - الربوة - طريق عمر بن عبد العزيز
هاتف: ٤٩١١٩٨٥ - مصور (فاكس) ٤٠٦٦٩٤٩
ص.ب: ٤٠١٢٤ - الرمز: ١١٤٩٩ - مبرقة (تلكس) AICO - SJ - 400981

مقَــدّمَــة

تصدير لتراث ابن أبي الدنيا
بقلم د. نجم عبدالرحمن خلف

إنّ الحمـد لله نحمده، ونستعينـه، ونستغفره، ونعـوذ بـالله من شـرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا. مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فلا مُضِلَّ له، ومَن يُضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إلـه إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم.

أما بعد:

فإنّ إخراج هـذا الكتاب وأمثـاله من مصنفـات الإمام ابن أبي الـدنيا التربوية النافعة ـ يمثل تلبية للدعوة التي ينادي بها الكثير من العلماء والدعاة والمربين في بعث وإحياء تراث هذا الحافظ المصلح؛ وذلك لما يأملونَ فيه من النفع العميم المترتب على هذا البعث والإحياء، فإنّ الذي امتـازت به مصنفات الإمام ابن أبي الدنيا حرصها المقصود على الموضوعات التربويـة الهادفة، وعنايتها المركزة بعوامل النهوض في تاريخ الأمة من خلال الدروس المستفـادة من سيـر السلف، ومـواقفهم الحيَّـة. ولأنهـا وضعت في عصـر التدوين، فجاءت بمجموعها مسندة. ولأن مصنفها جمع بين التخصص في علم الحديث، والإمامة في ميدان التربية والإصلاح. فكان محـدثاً حافظاً، ومربياً مؤدباً مصلحـاً. فاجتمع في مصنفاته ثمار هذين التخصصين فآتت أكلها ضعفين. فقد اشتملت كتبه على أصول المناهج العلميـة في ميدان التـربية

الإسلامية في القرون الثلاثة الأولى من الهجرة. واحتوت على مادة ثرية واسعة نفتقر إليها في توجهنا نحو الصياغة الإسلامية لمناهج التربية، وبيان أسسها وأصولها. كما يمكن ـ عن طريق الدراسة الجادة لهذه المصنفات ـ أن نُقَيِّمَ التيارات التربوية الحديثة في ضوء الأهداف والسبل التربوية الإسلامية. وبهذا ـ أيضاً ـ تتضح سمات المنهاج التربوي بين الأصالة والمعاصرة. ويمكننا بالتالي استخلاص وبناء النظرية التربوية الإسلامية من السلوك الحركي الإسلامي الواسع العريض الذي عنيت بجمعه وتدونيه ـ مسنداً موصولاً ـ هذه المصنفات الهادفة.

والمنهج التربوي القويم لا يعترف بالحواجز المصطنعة بين فروع العلم النظرية، وفروع العلم التي تعالج الجانب السلوكي. وكذا هو الحال بالنسبة للمنهج الإسلامي بكل تشريعاته وتفريعاته، فليس هناك انفصام ـ في المنظور الشرعي ـ بين العقيدة والمنهاج. بخلاف المناهج التي تَزْخَرُ بها دنيا الناس اليوم، شرقيها وغربيها. فالمعرفة عند أولئك مجزأة إلى دينية وغير دينية. والخطير في الأمر أنَّ الكثير من المتخصصين والباحثين نقلوا إلينا هذا «الفصام النكد» من المناهج التربوية الدخيلة واستعاروا تصاميمها من هناك، وأتوا بها بقوالبها ومضامينها دون أدنى تحوير أو تعديل[1].

ولم يكن الحافظ ابن أبي الدنيا يوم وضع هذه المصنفات الهامة ـ ولم نكن نحن حين نهضنا بمهمة بعثها وإخراجها ـ يطمح هو، أو نهدف نحن إلى التذكير النظري المجرد السالب، بل قَصدَ ـ وقصدنا من ورائه ـ إلى التذكير الإيجابي الذي يجعل من هذه الموضوعات ـ الجامعة في بابها ـ دليلاً هادياً، يدعو إلى العبرة والدَّرس، والمتابعة والتأسي، وكذلك يكون التعامل المُجْدي

---

(١) انظر د. عبدالرحمن صالح ـ المنهاج الدراسي أسسه وصلته بالنظرية التربوية الإسلامية: ٢٦٣.

مع النّصوص العلمية، وكذا تكون صورة العلم النافع، وبدون هذا التصور الحركي يصبح استحضار هذه النصوص وإحياؤها. هروباً من الواقع، وضرباً من المتعة والتسلية، وسبيلاً إلى مَلْءِ الجعبة بالمعلومات والروايات، كنوع من أنواع الترف الثقافي البارد الذي لا يدفع ولا ينفع والعياذ بالله.

* * *

مـوضـوع المسكـرات

هذا الكتاب القيم «**ذم المسكر**» ـ للإمام الحافظ ابن أبي الدنيا ـ يعالج قضيـة خطيـرة، تعصف بالـدِّين، والخلق، والاقتصاد في آن واحـد وتنخـر المجتمعات نخر السوس. إنها «رجس» المسكرات والمخدرات.

و«الـرجس» عبارة ربـانية معبـرة أطلقها الله ـ سبحـانه ـ على الخمـر والميسر والأنصاب والأزلام، جاعلاً «الخمر» في رأس هذه الخبـائث ﴿إنما الخمرُ والميسرُ والأنصابُ والأَزْلَامُ رِجسٌ من عملِ الشيطانِ فاجتنبوهُ لعلكم تفلحون»[1].

وليس من عجب عنـد المسلم المنقـاد لحكم ربـه أن يـرى «القـرآن الكريم» يطلق هذه العبارة المعبرة ﴿الرجس﴾ على ﴿الوثن﴾ و﴿الوثنيين﴾ بمثل إطلاقه لها على ﴿المسكرات﴾.

تأمل قولَ الله تعالى: ﴿فاجتنبوا الرِّجْسَ مِنَ الأوثانِ﴾[2].
وقـوله: ﴿فَأعرضوا عَنهم إنهم رِجْسٌ﴾[3].

هذه هي سمات المجتمع الشيطاني بشهادة الرحمن العالمِ بمن خلق ﴿رجس من عمل الشيطان﴾[4].

---

(١) سورة المائدة: الآية ٩٠.
(٢) سورة الحج: الآية ٣٠.
(٣) سورة التوبة: الآية ٩٥.
(٤) سورة المائدة: الآية ٩٠.

وكل مجتمع تطغى عليه هذه الشرور والآثام الكبار فهو مجتمع الأرجاس والرذيلة. سماته «الشرك» و«القمار» و«المسكرات».

ومجتمع هذا وصفه مآله إلى بوار، ومصيره الدمار، ومصداق هذا ـ إن احتاج البعض إلى برهان ـ ما نراه من حولنا من كبريات الدول وأكثرها تقدماً ورقياً في جانب المحسوسات. إننا نسمع استغاثات المصلحين منهم تنذرهم بهذه العاقبة، وتحذرهم من هذا المصير الذي بدؤوا يجنون ثماره ضياعاً ودماراً.

ثم يكون التوجيه الرباني الحكيم: ﴿فاجتنبوه لعلكم تفلحون﴾[1].

فجعل ـ سبحانه ـ فلاح الأمة المسلمة منوطاً ومرتهناً بهذا الاجتناب والانتهاء. بالضبط كما جرى التوجيه الحكيم في النهي عن كبيرة «الربا»، و«ابتغاء الوسيلة إلى غيره من خلقه»، و«وترك فريضة الجهاد» أو «الجهاد تحت راية بعيدة عن سبيل الله».

تأمل قول الله سبحانه: ﴿لا تأكلوا الرِّبا أضعافاً مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾[2].

وقوله: ﴿وابتغوا إليه الوسيلة، وجاهدوا في سبيله لعلكم تفلحون﴾[3].

هكذا يبين اللَّهُ آياته للأمة المسلمة فلا فلاح إلا باجتناب هذه المنكرات.

وقد أدركت الأمم الجاهلية ـ من حولنا ـ هذه الحقيقة القرآنية، وتوصلت إليها بعد عقود من الطيش والهوس والانفلات، وبعد تجارب مريرة قاسية قاتلة.

---

(١) سورة المائدة: الآية ٩٠.
(٢) سورة آل عمران: الآية ١٣٠.
(٣) سورة المائدة: الآية ٣٥.

أدركوا هذه الحقيقة القرآنية بأنه لا فلاح لأي مدنية. ولا استقرار لأي مجتمع في هذه الأرض ـ التي لا يملكون غيرها ولا يتطلعون إلى سواها ـ إلا بالتحذير من هذه السموم القاتلة، والتصدي لهذا السرطان الفتاك فقاموا ـ بتوجيه مصلحيهم ومربيهم ـ يخططون ويشرِّعون للوقوف بحزم ثابت أمام هذه الظاهرة الخطيرة التي آلت بهم إلى «المخدرات» طاعون العصر، ومرضه العضال.

إنّ الخمور وسائر المسكرات والمخدرات ﴿رجس من عمل الشيطان﴾[1]، تصد عن ذكر الله، وعن الصلاة، وتزرع الضغائن والأحقاد بين الأفراد والجماعات.

أخرج النسائي والبيهقي بسند صحيح عن ابن عباس أنه لما نزل تحريم الخمر إنما نزل في قبيلتين من الأنصار شربوا، فلما ثمل القومُ عبثَ بعضهم ببعض. فلما صحوا جعل الرجلُ يرى في وجهه ورأسه الأثر، فيقول: صنع هذا أخي فلان. وكانوا إخوة ليس في قلوبهم ضغائن. فيقول: والله لو كان بي رحيماً ما صنع بي هذا. حتى وقعت في قلوبهم الضغائن. فأنزل الله ـ عز وجل ـ هذه الآية ﴿إنما الخمر والميسر. . . . ـ إلى ـ فهل أنتم منتهون﴾[2].

وقد اجتهد المؤلف ـ رحمه الله ـ في التأكيد على الحقيقة القائلة: السكرُ جوامع الشر[2]. فالرجل إذا سكر فقد عقله وتمييزه فأتى ـ في حالة الثمالة ـ بكل منكر وقبيح. وقد يزني، وقد يقتل، وقد يكفر. وقد أخرج المصنف العديد من الشواهد على كل هذه العواقب المتوقعة. وواقعنا مليء بهذه الأمثلة، والمعنيون بأمن البلاد في كل قطر إسلامي يدركون حقيقة هذه المسألة، ويعرفون مئات الشواهد عليها. وقد ذكر المؤلف هنا حادثة مؤلمة

---

(١) سورة المائدة: رقم ٩٠.

(٢) سورة المائدة: الآية ٩٠ ـ ٩١ وانظر النص ٦١ من هذا الكتاب.

بحيث بلغ السكر في رجل أن حمل أمّه وألقاها في «التنور» وهو مسجور، فأحالها إلى حطام[1].

ومفاسد المسكرات أكثر من أن تحصر، والكتاب طافح بأقوال النبي ﷺ وتوجيهات أصحابه، وجيل التابعين ـ الذين تأثروا وتشربوا معاني هذا الدين ـ بألوان العلل والمفاسد والآثام التي اشتملت عليها هذه الكبيرة المحرمة.

ويكفي المسلمين شرفاً وفخراً أنهم توصلوا ـ بفضل ربهم وتوجيهه الكريم ـ إلى هذه الحقيقة الهامة منذ أربعة عشر قرناً من الزمان.

ومن معالم السبق الحضاري عند المسلمين أن يتصدى جملة من علماء هذه الأمة لهذه الآفة الفتاكة فيحذرون من خطورتها وسوء مغبتها. في وقت كان العالم كله يغط في سبات عميق. فينبري الإمام أحمد، وابن أبي الدنيا، وابن قتيبة وغيرهم إلى إفراد هذه المسألة في كتاب مستقل في القرن الثالث من الهجرة/ القرن العاشر الميلادي.

إننا اليوم في مجتمعاتنا الإسلامية، وفي غياب الوازع الإيماني، وفي موجة الانحراف عن دين الله ـ سبحانه ـ والتشبه باليهود والنصارى، وما تعانيه الأمة من الغزو الفكري والثقافي والعسكري، وفي الضعف والانحلال الذي دبّ في أوصال العالم الإسلامي كل هذه الأسباب مجتمعة أدت إلى انتشار هذه الظاهرة السيئة. التي ساهمت قديماً وتساهم في ضياع شباب الأمة، ومواردها، وأخلاقها، وقيمِها. وإذا لم يقع التصدي الحاسم الواعي لهذا السرطان فإن شرّه سيستطير، ويعسر علاجه على المسئولين. ولات ساعة مندم.

---

(١) «المصدر السابق»: الآية ٦٠.

خصائص ومزايا كتاب «ذم المسكر»

لابن أبي الدنيا

امتاز كتاب «ذم المسكر» بعدة مزايا:

منها: أن مؤلفه من الحفاظ الكبار، وصاحب قدم راسخة في الزهد والرقائق، وصاحب خبرة ودُرْبة في معالجة العلل الاجتماعية والأخلاقية فهو المربي والمؤدب والقدوة.

ومنها: أنه يعتبر وثيقة تراثية متخصصة، وضع في عصر من أكثر العصور نشاطاً وحيوية في جمع الأحاديث النبوية، واستقصائها، وتنقيتها. فعملت فيه الخبرة الحديثية والخبرة التربوية عملها فأتت أكلها ضعفين.

ومنها: أن الكتاب جاء مسنداً من فاتحته إلى خاتمته فهو أصل من أصولنا التراثية. وهذه الميزة أهم صفة في الكتاب من الناحية الحديثية، والقيمة العلمية البحتة.

ومنها: أنه كتاب إصلاحي هادف، قصد مؤلفه من ورائه نصيحة الأمة، وتحذير أبنائها من مغبة هذا المنزلق الخطير.

وهذه الميزة من أبرز مزايا الكتاب من الناحية التربوية فإن هذا الكتاب يتميز على كتاب «الأشربة» للإمام أحمد بن حنبل، وابن قتيبة وغيرهما بأنه لم يقف مع العملية الفنية في الجمع والتتبع ثم الرواية والتبليغ، وإنما أضاف إلى ذلك النصيحة والتحذير المباشر فأخرج أقوال السلف من الصحابة والتابعين، وسطر العظات والعبر التى تنفِّر من هذه الفعلة الشنيعة وتحذر منها. أما غيره

من الأئمة فاكتفوا بتسجيل مواد هذا الموضوع مفصلة تشتمل على حكم المسكر، وأنواعه، وأسمائه وما شابه ذلك. بحيث أنه يصلح للمختصين دون سواهم. أما هذا الكتاب فهو كتاب تربوي هادف يصلح لعموم المسلمين. وقد عالج موضوع «المسكر» معالجة موسوعية شاملة، فإن فيه إضافات هامة في مجال الدراسات التربوية، والنفسية، والإجتماعية.

وجاءت معالجته لهذا الموضوع في ضوء المنهج السلفي، فإنه لم يتجاوز المأثور في الغالب الأعم، وإذا خرج عنه فإنما يخرج عنه لإيراد القصص والتجارب التي تكشف الواقع السيء الذي يعيشه من ابتلى بهذا الداء الخبيث.

والإمام ابن أبي الدنيا وإن كان توسع في إخراج أقوال الصحابة والتابعين وتابعيهم، فإن هذا يعدّ منقبة طيبة تُعْلي من شأن الكتاب، وتزيد في أهميته؛ ذلك أن هذه الأقوال المأثورة عن هؤلاء السلف ـ في القرون الثلاثة الأولى من الهجرة ـ تعدُّ وثيقة علمية تربوية قيمة، خلَّفها لنا أئمة الصدق والهدى من المربين والعلماء الربانيين، فهؤلاء الأخيار لم يقولوا كلامهم اعتباطاً؛ بل كانت تأملاتهم قائمة على ملاحظة وتفحص لمسيرة جيلهم، فكانوا يقدمون له وللأجيال التالية من بعده خلاصة تجاربهم وأفكارهم.

وهذه النصوص التراثية القيمة لم يعرضها المصنف على سبيل الإيراد المجرد؛ بل أخرجها موثقة مسندة، فانتهج فيها منهج المحدثين.

كما احتلَّ الإمام ابن أبي الدنيا مكانة رفيعة في ميدان التربية والتعليم، والتأديب والتثقيف. وكان يتمتع بسمعة رفيعة جعلت الخلفاء العباسيين ـ المعاصرين له ـ يقصدوه من بين الحفاظ والعلماء، ويصطفوه أستاذاً ومربياً ومثقفاً لأولادهم.

وقد تضافرت هذه التخصصات العلمية المتنوعة في شخص المصنف ـ

فأنتجت هذه الكتب التراثية القيمة، ومنها كتاب «ذم المسكر» الذي يعتبر أحد مصادرنا العلمية المسندة في بابه.

ومن خلال نظرة عاجلة في نصوص كتابه هذا تتجلى لنا هذه الحقيقة بصورتها الموسوعية المتكاملة، ومقاصدها الشرعية الهادفة.

وكتبـه
نجم عبدالرحمن خلف
في المدينة المنورة
بتاريخ ١٥/ شوال/١٤٠٨ هـ.

ترجمة موجزة

لمؤلف الكتاب

الحافظ أبي بكر ابن أبي الدنيا

ترجمة الإمام ابن أبي الدنيا

اسمه ونسبه:

عبدالله بن محمد بن عبيد بن سفيان بن قيس، أبو بكر القرشي، الأموي، مولاهم، البغدادي الحنبلي[1]، المشهور بابن أبي الدنيا[2].

ولد ببغداد سنة ٢٠٨ هـ - ٨٢٣ م، في عهد الخليفة المأمون (ت ٢١٨ هـ) آخر العصر العباسي الأول، في عهد الحضارة الإسلامية الذهبي.

في هذه المدينة العامرة الزاخرة (بغداد) نشأ ابن أبي الدنيا حيث

---

(١) في هدية العارفين للبغدادي: ٤٤١/٥، «الشافعي» وهو خطأ.

(٢) مصادر ترجمته: ابن أبي حاتم - الجرح والتعديل: ١٦٣/٥، ابن النديم الفهرست: ١٨٥/١، الخطيب - تاريخ بغداد: ٨٩/١٠ - ٩١، ابن أبي يعلى - طبقات الحنابلة: ١٩٢/١ - ١٩٥، المسعودي - مروج الذهب: ١٢/١ - ١٣، ٥٠/٥ و١٧٤، ابن الأثير - الكامل: ١٥٥/٧: السمعاني - الأنساب: ٩٦/١٠ - ٩٧، ابن الجوزي - المنتظم: ١٤٨/٥ - ١٤٩، المزي - تهذيب الكمال: ٣٩٥/٧ ب، الذهبي - سير أعلام النبلاء: ٣٩٧/١٣ - ٤٠٤، وتذهيب الكمال: ١٨٤/٢ ب، وتذكرة الحفاظ: ٦٧٧/٢ - ٦٧٩، والعبر: ٥٦/٢، ومختصر دول الإسلام: ١٣٣/١، ابن كثير - البداية والنهاية: ٧١/١١، ابن تغري بردي - النجوم الزاهرة: ٩٦/٣، ابن شاكر الكتبي - فوات الوفيات: ٤٩٤/١ - ٤٩٥، ابن حجر - تهذيب التهذيب: ١٢/٦ - ١٣، وغيرهم. وانظر ترجمته المفصَّلة في مقدمة «كتاب الصمت وآداب اللسان» للمحقق.

المحدث والفقيه والمؤدب والزاهد هم أبناء هذا المجتمع ومادته، وكان لظاهرة العلم والزهد أبلغ الأثر في بناء شخصية ابن أبي الدنيا وتكوينه العلمي.

بيئته التي نشأ فيها:

كانت أسرة ابن أبي الدنيا أسرة خير وفضل، وبيته بيت علم وصلاح.

فأبوه من العلماء المهتمين بالحديث وروايته، مما ساهم في نشأته العلمية، وتكوينه في وقت مبكر.

فحببته أسرته في العلم والعلماء، ودفعت به إلى حلق العلم، فأقرأته القرآن، والفقه، وحببته في سماع الحديث وكتابته. وبحكم أنَّ والده كان أحد العلماء فقد مَكَّنَهُ ذلك من السماع من أعلام العصر وحفاظه. وَسِنُّه دون البلوغ، ومِنْ هؤلاء الحفاظ سعيد بن سليمان الواسطي ـ سعدويه ـ (ت ٢٢٩ هـ)، وأبو عبيد القاسم بن سلام (ت ٢٢٤ هـ)، وخالد بن خداش البصري (ت ٢٢٣ هـ)، فأدرك بهؤلاء وطبقتهم إسناداً عالياً، وشارك أصحاب الكتب الستة في كثير من شيوخهم. وقد دلت بعضُ الروايات على أنَّهُ استقل وأخذ يطوف على المشايخ بنفسه، وسنه دون العاشرة[1].

وبهذه العناية المركزة والمبكرة من أسرة ابن أبي الدنيا، وبما كان له من الهمّة والإقبال الكبير استطاع أنْ يجمع علماً غزيراً ويتتلمذ على مئات المشايخ من أئمة العصر وحفاظه. قال الذهبي: «وقد جمع شيخنا أبو الحجاج الحافظ أسماء شيوخه على المعجم، وهم خلق كثير»[2]، ثم ذكر الذهبي جزءاً

---

(١) الخطيب البغدادي ـ تاريخ بغداد: ١٠/٩٠، ابن حجر ـ تهذيب التهذيب: ٦/٣١، وانظر ابن الجوزي ـ المنتظم: ٥/١٤٨. وهي رواية إبراهيم الحربي في السماع من عفان بن مسلم الصفار والمعروف عن عفان أنه اختلط في ٢١٩ هـ ـ أي قبل وفاته بعام أو أقل ـ وقد تركوا السماع منه بعد اختلاطه، وسيأتي الكلام عليها في منزلته العلمية.

(٢) الذهبي ـ سير النبلاء: ١٣/٣٩٧.

منهم فبلغ عددهم أربعة وتسعين شيخا. وبلغ عدد شيوخه في كتاب الصمت وحده أكثر من مائتي شيخ.

وبهذا تكونت شخصية ابن أبي الدنيا العلمية، فهو حنبلي المذهب، سلفي العقيدة، زهدي المَشْرَب، وعمل على بث هذه الروح الأخلاقية الإيمانية، ورصد نفسه لها، وأنشأ في تقعيدها وإذاعتها ما يزيد على مائة مصنف.

أثره في مجتمعه:

وكان لابن أبي الدنيا الأثر الكبير في مجتمعه، تَجَلَّى في تربيته لأولاد الخلفاء[1] الذين هم من أهم طبقات المجتمع، وممن سيتولى مقاليد أمور المسلمين وبصلاحهم تصلح البلاد، ويسعد العباد. كما تَجَلَّى في تدريسه وتعليمه لعدد هائل من طلبة العلم، وقد تخرج على يديه منهم جمع غفير، أصبحوا من أفراد الأمة عِلْما وصلاحاً.

كما ساهم في الحركة الإصلاحية التي استهدفت تربية الجماهير العظيمة المقبلة على هذا الدين عن طريق التأليف والتصنيف مقتفياً أثر شيخه الإمام أحمد ومَنْ قبله مِنْ أمثال عبدالله بن المبارك وسفيان الثوري، فألَّف في التربية والزهد والرقائق مؤلفات جَمَّة، وصفها الحافظ ابن كثير[2] فقال: «المشهور بالتصانيف الكثيرة النافعة الشائعة الذائعة في الرقاق وغيرها، وهي تزيد على مائة مصنف، وقيل: إنها نحو الثلثمائة مصنف».

ويكفي للدلالة على حرصه في تسديد المسلمين، وتحذيرهم من مزالق الشيطان قيامه بوضع هذه التآليف الوافرة في ميدان الأخلاق والتربية والإصلاح، وعلى رأسها «كتاب الصمت وآداب اللسان»[3] فإنه قد صنفه في

---

(١) انظر تفصيل ذلك في فصل «مكانته العلمية».

(٢) البداية والنهاية: ١٧/١١.

(٣) انظر: الفصل الذي عقدناه عن الكتاب وأهميته.

فترة كانت مشحونة باللغط واللغو والانقسامات وما يترتب عليها من مشاحنات، وهو أمر يفرزه الترف الفكري، وتعين عليه البطالة وفي مثل هذا الجو يزخرف الشيطان للناس حب الكلام حتى تصبح شهوة مستحكمة، ويُزَيِّنُ لكل قائل مقالته. وهذا ينبهنا أيضاً ـ إلى أن الحافظ ابن أبي الدنيا كان مُرَبِّياً مع كونه عالماً وداعية قصد بالتصنيف نصيحة الأُمة والأخذ بيدها، لا مجرد التصنيف فحسب، فكانت مصنفاته هادفة، لذا عمَّ نفعها، وذاع صيتها، وعظم أثرها.

واستمر أبو بكر ابن أبي الدنيا مؤدياً لرسالته إلى آخر حياته وظل يبثُّ العلم، ويتصدر لتدريسه وقد جاوز السبعين من عمره. إذ سمع منه كثير من الطلبة في آخر حياته وحتى السنة التي توفي فيها: أمثال الخُتَّلي عبدالرحمن بن أحمد البغدادي[1] (ت بضع وثلاثين وثلاثمائة)، وابن الجراب إسماعيل بن يعقوب البغدادي البزاز[2] (ت ٣٤٥ هـ).

حزمه ورجولته:

لقد حفظت لنا بعض المصادر صورة مشرقة من صور الحزم والرجولة في شخصية ابن أبي الدنيا فإنه قال مرة: (كنت أؤدّب المكتفي فأقرأته يوماً «كتاب الفصيح» فأخطأ فقرصت خده قرصة شديدة، وانصرفت، فلحقني رشيق الخادم فقال: «يقال لك: ليس من التأديب سماع المكروه. قال: فقلت: سبحان الله أنا لا أسمع المكروه غلامي ولا أمتي، قال: فخرج إليَّ ومعه كاغد، وقال: يقال لك: صدقت يا أبا بكر، وإذا كان يوم السبت تجيء على عادتك. فلما كان يوم السبت جئته، فقلت: أيها الأمير، تقول عني ما لم أقل؟ قال: نعم يا مؤدبي من فعل ما لم يجب قيل عنه ما لم يكن)[3].

وفي القصة دلالة صريحة على حزم ابن أبي الدنيا وعدم محاباته لأحد

---

(١) انظر ترجمته في الفصل الثاني «شيوخه وتلاميذه».

(٢) الخطيب ـ تاريخ بغداد: ٣٠٤/٦، الذهبي ـ سير أعلام النبلاء: ٤٩٧/١٥ ـ ٤٩٨.

(٣) ابن شاكر الكتبي ـ فوات الوفيات: ٤٩٤/١ ـ ٤٩٥.